

رخص يدفع الراكب في الدرجة الأولى ٢٥ سنتيماً وفي الدرجة الثانية ١٥ وقد نقلت هذه السكة الحديدية سنة ١٩٠٩ : ٢٥٤٤٥٩٩٢٠ راكباً وكان عدد من أقتهم في السنة التي قبلها ٢٢٩ ، ٧٠٠ ، ٥١٩ وكانت أرباحها سنة ١٩٠٨ نحو أربعين مليار فرنك فأصبحت في السنة التالية زهاء أربعة وأربعين ملياراً وهم يعملون أبدأً على تهويته على طريقة لا تخليه من الهواء النقي ويذرون فيه المواد المضادة للتعفن وقد يتأذى بالركوب فيه بعض ضعاف المزاج ولكن ذلك من كثرة الازدحام فيه لا من شيء آخر.

علم المشرقيات

١٣

لا يتأتى لغريب عن أمة أن يعرفها حق المعرفة إلا إذا درس لغتها وتاريخها وآدابها. واللغة مفتاح باب كل معرفة ومقدمة بين يدي كل عمل. ولذلك كان من الراغبين في درس أحوال الشرق من أهل أوربا أن يدرسوا لغاته ليحيطوا خبراً بأهله وكان للغة العربية المقام الأول بين تلك اللغات لأنها لغة أمة ذات حضارة باهرة ودين دان به أهل الأقطار المعتدلة من صميم الشرق.

فتوفروا على إحكام العربية وتنافسوا في تعليلها حتى نبغ منهم أناس لم يقلوا في فهم أسرارها عن خنص أبنائها الذين نشأوا في حجرها وأحكموا منكة نظنها ونشرها وكان لفرنسا من بين ممالك الغرب يد طولى في هذا المضمار. وكل ممنكة من ممالك أوربا وأمريكا لا تخلو من أفراد من أهلها أنفسهم يعانون حل معضلات لغة العرب وينسلون إلى تلقفها من كل حذب.

ولقد دعوا تعلم هذه اللغات وما ينبغي لها علم المشرقيات أو الاستشراق والمشتغلين بها علماء المشرقيات أو المشرقين وقديماً كان العارفون من أهل هذا الشأن من الفرنسيين أكثر من غيرهم وقد أصبحوا اليوم وأكثرهم من الألمان. والألمان أمهر الغربيين في النطق بالنسان العربي وأكثرهم نبوغاً فيه وعند الألمان من علماء المشرقيات بقدر ما عند الفرنسيين والنسويين والجرين والإيطاليين والهولنديين والإنكليز والروس والإسبانيين والبرتغاليين والأمريكين والبلجيكيين وكثرة عدد وحسن معرفة ولا عجب فالألمان نبغوا في كل شأن من شؤون الحياة والعلم والصناعة ودرس العربية كان له النصب الأوفر من عنايتهم.

وقد اشتهرت في فرنسا الجمعية الآسيوية ومدرسة اللغات الشرقية الحية وقد درست أحوالها وزرقتها غير مأمرة وهاءنذا الخص للقارئ ما عرفته عن الجمعية الآسيوية بواسطة صديقي المسير لوسين بوفّا أحد الأعضاء العاملين العالمين في الجمعية المشار إليها فقد كتب إليّ ما تعريبه: إن فكر تأسيس جمعية علمية تعنى بدراسة الشرق قد جرى البحث فيه منذ أواسط القرن الثامن عشر ولكنه لم يتم إلا بعد زمن طويل. فقد أنشئت الجمعيات الأولى للباحثين في المشرقيات خارج أوروبا مثل جمعية العلوم والفنون في باتافيا (١٧٧٨) والجمعية الآسيوية في الينغال (١٧٨٤) والجمعية الآسيوية في بومباي (١٨٠٥)

ومنذ ذاك العهد أنشئت في أوروبا وأمريكا عدة جمعيات للمشرقين ولكن أقدمها عهداً الجمعية الآسيوية في باريز أمت سنة ١٨٢٢.

وعلى ذلك العهد رأى جماعة من مستشاري الفرنسيين أن الحاجة ماسة إلى أن يجتمعوا أو يجنوا مواد الدروس المختلفة الضرورية لهم وأن يصدرها لجنة تكون لسان حالهم وقائمه أعينهم. وكان المسير ديلاستي أنشط هؤلاء العلماء وبفضله أسست اللجنة الآسيوية التي ناب في رئاستها ما يقرب من ثلاثين سنة وكان الرئيس إذ ذاك سلفتردي ساسي أحد أعضاء الجمع العلمي وأستاذ مدرسة فرنسا ومدرسة اللغات الشرقية وهو أعظم من خدم اللغة العربية في فرنسا وربما كان أعظم مستشرق نبغ ونفع الفرنسيين وكان من مؤسسي الجمعية أيضاً كوسان دي بوسفال وكارسين دي فاسي ورموسا.

فبدأت الجمعية أعمالها لأول تأسيسها بشهر اللجنة الآسيوية التي اختصت بالبحث في لغات الشرق وتاريخه وعلمه وآثاره ولا تزال إلى اليوم نموذج العلم الراقي وسيدة الجلات الإحصائية في فرنسا.

وأنشأت الجمعية خزانة كتب جمعت فيها كل ما وصلت يدها إليه من الكتب والمخطوطات والرسوم وغيرها مما يفيد العلماء من أعضائها وجمعت أيضاً مجموعات من النقود القديمة والتحف البديعة. ونشرت مصنفات في تاريخ الشرق وأصول لغاته وفلسفه وأديانه وطبعت على نفقتها عدة مصنفات وساعدت كثيرين مساعدات أدبية ومادية على نشر الكتب النافعة وكان نشر المخطوطات وترجمتها من أهم الأعمال التي تعنى بها. وخصصت جلساتها في سماع المراسلات والمناقشات العلمية النافعة كما عنت بمراسلة العلماء الأجانب على الدوام والانتفاع بآرائهم وأعمالهم.

وإذ قد ظهرت منافع الجمعية الآسيوية سنة ١٨٢٨ عادت بعد أن ضعف أمرها بضع سنين إلى مكانتها الأولى ولم تلبث أن قويت عن ذي قبل وانتشرت كلفتها فرأسها أمثال

سلفستردى ساسي ثم جوبر ورينو وموهل وكارسان دي تاسي ورنيه ورنان وباريه دي مينار وسينار. ومن جهة رؤسائها الثانويين كوسين دي برسفال وبارتلي سان هينر ودفوني وبوريه دي كورتيل وماسيرو ورينس دوفال وبين امنا سرها ايل ريمورا وجايس ودار مستر وشافان.

تفتت الجمعية منذ تأسيسها في عدة أماكن ومنذ سنة ١٨٨٣ اتخذت لها مقراً في بناء ملاصق للمجمع العلمي وذلك بفضل رئيسها إذ ذاك رنان الفيسوف المعروف ونالت من الحكومة الفرنسية عدة معونات رسمية ومنحت الجمعية مكتبة الأمة الكبرى عدة كتب ومخطوطات وغيرها من النفائس ولا سيما المخطوطات التي أتت بها من الهند والجموعة التبتية وكتب الديانة البوذية.

وما عدا المجلة الآسيوية التي تصدرها الجمعية في نحو مائتي صفحة كل شهرين ويتألف منها مجلدان كل سنة فقد نشرت على نفقتها ٢١ مصفاً تتألف من نحو ٤٠ مجلداً وبعض هذه المصنفات طويلة الذيل مثل مروج الذهب للمسعودي نشرته بنصه العربي وترجمته إلى الفرنسية وهو في تسع مجلدات ونشرت رحنة ابن بطوطة في أربع مجلدات وكتاب الماهافاستو في ثلاث مجلدات.

وهذه الجمعية تمنح كل سنة معونات لبعض المؤلفين في الموضوعات العلمية. وأعضاؤها اليوم ٢٥٠ عضواً منهم ٢٦ من الأجانب وهي تبعث مجلتيها إلى نحو مئة جمعية علمية ومدرسة جامعة أو مجلة دورية وإلى ثمانين مكتبة من مكاتب العالم على يد نظارة المعارف الفرنسية وللمجلة ١٣٠ مشتركاً ليسوا من الداخلين في الجمعية. وقد بلغت وارداتها سنة ١٩٠٨: ٢٥٦٣١ فرنكاً و٦٦ سنتياً وفي مكتبها نحو اثني عشر ألف مجلد من

الكتب و ١٥٠٠ صفحة و ٢٠٠ كتاب مخطوط وفيها مجموعة من النقود القديمة هذا إجمال حال الجمعية الآسيوية وفيها من الأعضاء من لا فائدة منهم ولا رابطة بينهم وبين الغرض الذي ترمي إليه إلا أنهم يؤدون الراتب السنوي المضروب عندهم ويتناولون اجنحة لقاء ذلك وكثير منهم لا يعرفون من أحوال الشرق ولغاته وأصول مكانه أكثر مما نعرف نحن عن الصين وتبت.

أما مدرسة اللغات الشرقية الحية وهي التي تقرئ مبادئ اللغات الشرقية وهي مخرج لأعضاء هذه الجمعية وغيرهم ممن يتولون القنصليات والترجمة والسفارة عن حكومتهم في بلاد الشرق فاسمها فيما أرى أكثر من نفعها وما دامت فرنسا تراعي الخواطر في توسيد وظائف التدريس لغير الأكفاء فإن تعميم اللغات الشرقية يبقى صورياً لا حقيقياً. وهيئات أن ينشأ لفرنسا وهي على هذه الحال أمثال المستشرقين الأول من أبنائها الذين باهت بهم الأمم مادامت سوق الشفاعات رائجة عندها.

درس من سلاتيك

١٤

بينما كنت مأخوذاً بما أشاهده من مظاهر عظمة الأمة الفرنسية وأقرأ مثلاً مجسماً من الارتقاء الغربي ولا أفرغ ليلي ولا لهاري من زيارة المعاهد العلمية وحضور الدروس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأغوص في مكاتب باريس ولا سيما مكتبة الأمة